الحـب وصـلٌ وإيصـالٌ وحلـولٌ وتعبّـد وتشـبيكٌ وحضـنٌ ومناجـاةٌ وتعلّـقٌ وتبتّـل وذوبـانٌ وتوسّـد لـذراع الحبيـب ودخـولٌ في كامـل تفاصيلـه، عـزفٌ للسـلم الموسـيقي عـلى بيانـو الجسـد، وتـلاوةٌ قصيـدة الحيـاة مـن كتـاب الـروح، صـلاةٌ صوفيـةٌ في ملهـى ليـلي، مسـكة يـد ومسـكة روح ونبضـة قلـب تُجِيـب نبضـة قلـب، إيقـاع يـردّ عـلى إيقـاع، ونَفَـس يواكـب نَفَسـا، ووميضـة تجـاوب ومضـة، نقطـة عـرق تتعشـق في نقطـة عـرق لحظـة الملامسـة، بـركان مـن اللـذة والتنهـد والوجـع والارتقـاء والألم والنشـوة والنـدم والجشـع وخـوف الفـراق، انـدلاع، فـوران، لا إرادة، لا منطـق، لا معقـول، لا حسـابات، لا موازنـات، إحيـاء، إرواء، نـور، بـرّ، رحمـة، طهـر، فُجـر، رأفـة، انصيـاع، كـدح، تقـوى، مكابـدة، اتحـاد، شـغف، تنـزّه، صبابـة، لوعـة، خشـية، طيبـة، تضحيـة، مصافـاة، مـودّة، وَجْـد، وداد، وَلَـع، إيثـار، مَنْـح، جَـوى، هُيـام. إيـلاف، صفـا... حـب.

الحـب مـش مصبـاح عـلاء الديـن هيحـلّ لـك كل مشـاكلك، ولا شريـط ترامـادول هينقلـك بـره الدنيـا وينسـيك كل مواجعـك، ولا ليلـة القـدر الـلي اتفتحـت لـك وهتطلـب فيهـا بقـى وتتمنـى كل الـلي كان ناقصـك طـول عمـرك فيتحقـق!

الحـب مـش هيغـيّر فيـك حاجـة إنـت مـش عايزهـا تتغـير، أو عامـل نفسـك مـش واخـد بالـك منهـا، أو مـش مسـتعد ليهـا كفايـة، أو استسـهلت ومـا عملتـش الهـوم ووركِ بتاعهـا!

الحب.. لو متشعلق في قصص قديمة لسه ما انتهتش، لو مُشوَّه ومنتهك ومخذول وماعندكش القدرة على تحمل المسؤولية، لو ما بتعرفش تدعم الطرف التاني وتقف في ضهره وتقدر ظروفه، لو أناني ولعبي ومتسرّع وعشوائي، لو جعان للعلاقات أو بتدوّر على تعويض أو بتجرّب أو بتسلّي وقت فراغك.. مش هيبقى نور بالنسبة لك ولا علاج ولا وطن، إنما -للأسف- سلاح هتطعن بيه طرف تاني ملوش ذنب، وهينوبك من الشر جانب طبعا بلا أدنى شك!

الحب مشروع، أهم مشروع إنساني في الواقع، ليه بداية ونقطة وصول ومعالم وأحداث وخارطة طريق وبروتوكولات وشفرات وليلة كبيرة سعادتك، وأي إفراط أو تفريط في جزئية من دول، بيفرقع في وشك فورا ويخلّف ندوب ممكن يبقى عمرها أطول من عمرك.

الحب زي الامتحان؛ محتاج مجهود وطاقة، والمفروض تروح له مذاكر ومحضّر ومستوعب ومستعد للمفاجآت وشبعان وغاسل وشّك وسنانك ونايم كويس ولابس الحتة الزفرة عشان ما تفقدش تركيزك ولا تتشتت وتعرف تنجو بالدرجات اللي نفسك فيها وتحقق حلمك.

الحب اجتهاد ومثابرة وصبر ويقين وأمل ومودة ورحمة ومداواة ووصل وإيثار وتجلّي وتحلّي وتخلّي ومشاركة وإخلاص ومواءمة وإعزاز وتلطف وتغاضي وشغف وميل ومصافاة وهيام وولع وغرام واحتمال ورؤيا وأناة وتبصر وتجلد وحلم ورويّة وصلابة وكفاح وتعقل وجنون ومواساة ومؤازرة وتحنان وتعاطف وصداقة وصدق وتفهم وإنصات واستيعاب وتمهل ورفق ومهادنة ووفاء.

الحب هو آخر آخر آخر ضمانة في هذا العالم عشان نفضل بني أدمين!

الحب - في جوهره- رحلة استكشافية، بيخوض فيها الاتنين مجاهل النفس البشرية حرفيًا، ويعرفوا -يقينا لا تخمينا- همّ مين، وهيتصرّفوا ازاي في المواقف المختلفة، وحدود رحمتهم -أو قسوتهم- ببعض إيه.

وبالتالي فردود فعل كتيرة بتبقى مفاجئة وغريبة وغير متوقعة بالمرّة، وأول حد بيتفاجئ بيها هو صاحبها شخصيًا، وللسبب نفسه ممكن تجربة الحب التاني تكون أنضج من الأولى، لأننا بنبقى عرفنا شوية أسرار عن نفسنا وطرق إدارة الحب وكيفية التصرف في المواقف الصعبة.

ورغم إن مفيش كتالوج موحّد ولا وصفة سحرية الناس كلها تمشي عليها عشان نوفّر على بعض وجع القلب، ففيه قواعد مهمة لازم نحطها في الاعتبار، أهمها إننا (بشر)، مش ملايكة ولا قديسين ولا أصحاب رسالات سماوية، ما يعني إن هتيجي علينا لحظات نضعف ونخاف ونكذب ونمل ونخون ونشتهي ونغير ونحقد، ومش شرط يكون ده دليل على إقلاعنا عن الحب، ولا إننا ما كناش بنحب أصلا، ولا إن ما عادش ينفع نكون مع بعض.

لكنه في الغالب يبقى مؤشر إننا محتاجين هدنة، أو استراحة، لإعادة ترتيب الأولويات ورؤية مكاننا الحالي على الخريطة، والتأكيد على محطة الوصول.

والعلاقات اللي مشيت سَلِسة من أول طلعة، وما قابلتش غلطات ولا هنّات -على ندرتها- بتبقى هشة للغاية، وأي مشكلة صغيرة تتفجر في وشها وقت الجد، بتبقى مدمرة، لكن اللي اتطحنوا وعجنوا وخبزوا بعض، فرصهم في البقاء بتبقى أقوى.

وساعات من فرط الحب، وخوفنا من انتهائه، بنتغابى، ونعمل بالزبط اللازم عشان نقضي عليه، زي اللي شاف مصيدة منصوبة قدامه، ومن شدة رعبه جري عليها بدل ما يجري منها، فاتقفلت على رجله، وكسرتها!

لكن أكبر عدو للحب على الإطلاق: العشم.

إننا نعمل غلطة أو تصرّف ما وإحنا متعشّمين إن الطرف التاني هيستوعب، وهيعدّي، فنفاجأ إن رصيدنا لم يعد يسمح، وإن الحياة وقفت تمامًا وتجمدت بشكل مطلق عند النقطة دي، وكل استجابتنا ومحاولاتنا لعمل كنترول زد والرجوع للحظة السابقة عليها، باءت بالفشل، وما يبقاش فاضل غير إننا نطلع المحفظة ونحاسب على كل المشاريب، اللي طلبناها واللي طلبها غيرنا!

عشان كده، تبقى أهم حاجة في العلاقة على الإطلاق: الرحمة.

رحمة المحب بحبيبه، وقدرته على تفهم أخط ومسامحته ومنحه فرصة تانية، والشفقة على حاله واستخسار العمر اللي فات والعمر اللي جاي وهم مش بعض، لو مفيش إحساس الاستخسار ده، هتبقى العلاقة مجرد استجابة آنية لشخص قال لنا كلام لطيف، لكن مش حب، مش مودة ورحمة، مش توحّد مع شخص في سبيل الوصول لهدف مشترك.

الموجع.. رغم إن الحب هو المرادف الأرضي لكلمة جنّة، ومن لم يدخل جنة الأرض لم يدخل جنة السماء، فلو ما كانش ناضج كفاية وواعي ورحيم، بيبقى بوابة التيه الأبدية، واللي بيدخلها ما بيخرجش منها سوي تاني أبدا!

البياعين عندهم مصطلح مشهور اسمه زبون (طيّاري). يعني اللي بيبقى معدي بالصدفة فبيشتري منه مرة واحدة ومش هيشوفه تاني، فبيدي له أسوأ بضاعة، من فوق بتبرق ومن تحت زبالة حرفيا، لأنه مش فارق معاه وما بيمثلوش عامل تغذية مستدامة.

أما الزبون الدايم فليه معاملة خاصة ومخلفة تليق بقدرته على أخد حقه وبستفة البياع لو حس إن المعاملة مش تمام.

وده نفس اللي بيحصل في العلاقات بالظبط!

فيه ناس بتعتبرك حبيب طياري، واخدين قرار إنك مش مكمل في حياتهم، إنت بتاع وقتك ومرحلتك هتنفذ غاية في دماغهم وهتتكل على الله، فبيقضوا معاك وقت لطيف بدون مستقبل، ممكن يزعلّك عادي ويهينك عادي ويجي عليك ويخذلك ويعرّضك لكل صنوف الإساءة الممكنة بضمير مستريح.

أما لو إنت فارق معاه، وبيخطط لمستقبله وياك فعلا، فالمعاملة هتختلف 180 درجة!

وإحنا بنبقى عارفين على فكرة إذا كنا طياري في حياتهم ولا لأ، بس بنختار نتجاهل ده.. يمكن!

بنختار نتعلق بحبال دايبة، ونلتمس أعذار مش موجودة، لأن حياتنا فارغة وموحشة ومحتاجين نحب ونتحب، محتاجين صدى لصوتنا اللي اتنبح من كتر الندا على اللي سابونا لوحدنا ومشيوا!

لكن الدرس اللي هتتعلمه بتمن غالي قوي في النهاية: إن القلب مش بعزقة!

القلب مش بعزقة يا شقيق.

مفيش كتالوج للمشاعر الإنسانية، ولا قاعدة واحدة تنطبق على جميع البشر.

والحب تجربة شديدة الذاتية والخصوصية، وحتى لو تشابهت الخطوط العريضة للحكايات هتفضل فيه تفاصيل لا يدركها إلا من يكابدها، فما تستوردش خبرات حد ولا تحاول تطبق ظروفه عليك.

لكن -بصفة عامة- عشان تعرف إذا كنت ماشي صح ولا غلط، شوف إنت مبسوط في العلاقة دي ولا لأ. إحنا بنحب عشان ننبسط ونفرح ونتكامل، بنحب عشان رؤيتنا لبكره تتسع وإحساسنا بالجمال يزيد وثقتنا في نفسنا ترتفع، فلو العلاقة بتخصم من رصيد أي مُعامل من دول، يبقى فيه حاجة غلط، ولازم وقفة.

ومش شرط عشان بدأت تكمل لمجرد الإكمال، لما تنفصل بعد ٢٠٪ من المشوار أفضل من لو انفصلت بعد ٩٠٪. قلبك مش معمل كيميا، تركّب ده على ده يمكن يطلع شغال!

قلبك سلاحك الوحيد في معركة الحياة غير العادلة، وليه طاقة شحن زيه زي أي مُعدّة، فما تخسروش بدري، أو تديه للي بيسحب من الباور بتاعته، عشان تفضل قادر تحس، وعشان تفضل قادر تبقى بني آدم.

أسوأ ما في كلمات الحب، إنه بعد انتهاء العلاقة بتبقى أكتر حاجة هتجننك: هو الكلام ده كان حقيقي فعلا وقتها والحال اتبدّل، ولا كان كذب وشربته؟!

الـكلام الـلي سـهرت الليـل تفكـر فيـه، وكتبـت بعضـه عـلى نوتـس الموبايـل بالسـاعة والتاريـخ عشـان مـا تنسـاهوش تحـت أي ظـرف، وحكيت لصحابـك عنـه، ورددتـه بالسـاعات بينـك وبـين نفسـك وإنـت بتتنهـد ومآمـن لـلي جـاي عـلى الآخـر!!

إذا كان كذب، ازاي كان واصل ولامس ومخترق وبيطبطب كده؟!

وإذا كان حقيقي، فازاي انتهى النهاية الباردة دي؟!

الكلـمات، عمرهـا أطـول مـن الـلي قايلهـا، فلـو مـش ناويـين تكملـوا، مـا تتكلمـوش أرجوكـم، مـا تـزودوش الأسـلحة الـلي بتطعننـا بعـد مـا بتمشـوا، ولا الأشـباح الـلي بتعشـش في دماغنـا وتنغـص علينـا كل ثانيـة بعدكـم، ولا السـاعات الـلي بنقـع فيهـا تحـت رحمـة أسـئلة ملهـاش إجابـات..

وإذا أحببتم -يوما- فأحسنوا الذبح!

فيـه نـوع مـن البـشر، لأنـه مُهتـم جـدا، وبيحـبّ بـكل ذرة في قلبـه، وبياخـد آلام الآخريـن عـلى صـدره بـلا دعـوة مـن أحـد، ومسـتعد -حقيقـي- يبـذل دون مقابـل لآخـر نقطـة -لسـبب مـا- مـا بيجذبـش غـير الأشـخاص المتنمريـن والمؤذيـين ومصـاصي الطاقـة، وبيتـورّط معاهـم في علاقـات مريضـة جـدًا ومجحفـة ليـه عـلى كل المسـتويات؛ كل مـا يـزادد في العطـاء يـزدادوا في القسـوة عليـه واسـتغلاله، كل مـا يفتـح مسـاحات للتلاقـي، يفرّعـوا 100 وسـيلة للفُرقـة.

ومشـكلته الأساسـية إنـه مـا بيبقـاش مصـدّق إن الطـرف التـاني وِحِـش كـده فعـلا، وبيدمّـره بالبطـيء، فبيفضـل يبـص حواليـه بحثـا عـن أي تفسـير لـلي بيحصـل، غـير إنـه يحمّلـه المسـؤولية الكاملـة ويقتنـع إنـه أسـاء

الاختيـار زي كل مـرة، أو بيتصـوّر إنـه أقـل مـن الطـرف التـاني وكونـه فـاز بيـه فـدي نعمـة تسـتوجب الشـكر وتحمّـل أي شيء للحفـاظ عليهـا!

لكـن طـال الوقـت أم قـصر هتيجـي لحظـة يلاقـي نفسـه -حرفيـا- في الطـلّ: ادّى الـلي اداه، ورصيـده حفنـة مـن الوجـع، أخلـص وتفـانى، وآخرتـه كانـت مـما يليـق بالسـفاحين وقتالـين القتـلى!

والكلاسـيكيات بتقـول إن القفلـة دايمـا بتيجـي مـن عنـد المتنمّـر، الـلي قـضى وطـره خـلاص وشـبع اسـتغلال ومـلّ، وآن الأوان ينقـل العطـا عـلى ضحيـة تانيـة، فبيحـط كلمـة النهايـة بأكـبر قـدر ممكـن مـن الوحشـية والجـبروت، كأنّ مـش هايـن عليـه يسـيب فيـك ذرّة سـليمة، أو حاجـة حلـوة تفتكرهـا، ومحتـاج يتطمّـن إن مـش هتقـوم لـك قومـة بعـده!

ولـو الشـخص/الضحية -في لحظـة تنويـر- أدرك قدرتـه الفطريـة عـلى تدويـر الآلام، وإعـادة إنتاجهـا عـلى هيئـة دوافـع للإفـلات مـن المحنـة وتـذوق الحيـاة الـلي بجـد ورسـم خريطـة طريـق عـلى مقاسـه، هيقـف عـلى رجليـه في يـوم مـن الأيـام، ويشـوف نفسـه -عـلى ضـوء المحنـة- بمنظـور جديـد يسـتحقه.

لكـن لـو مـا اتعلّمـش الـدرس، وفضـل يستنسـخ التجربـة نفسـها مـع أشـخاص آخريـن، فهيعيـش مسـتباح للأبـد، بـاب خـراب، ممسـحة كل مـن هـب ودب يمسـح رجليـه فيهـا ويرميهـا ورا ضهـره في النهايـة!

أنـا عـارف طبعًـا إن التغيـير صعـب، والتعـافي مـن إدمـان العلاقـات مـش سـهل، والتعـود أشـد تأثـيرا مـن الحـب، بـس فعليـا كل واحـد عنـده فرصـة للاختيـار، وتعديـل مسـاراته، والبـدء مـن جديـد في أي نقطـة مـن عمـره -أيـا كان الـلي هيخـسره!- وجـزء كبـير مـن التعـافي في تقبلنـا لنفسـنا ولأخطائنـا وسـقطاتنا وضعفنـا وحبنـا ليهـا وإيماننـا إننـا نسـتحق الأفضـل،

لكن الاستمرار في تلقى الأذى وتبريره -وأحيانا الاستمتاع بيه لا شعوريا!- مش هيودّيك في أي حتة. وأكيد أكيد أكيد 3- أكيد- فيه مخرج في حتة ما، يمكن لما تركّز تشوفه، لما تبذل بعض الجهد بنية صادقة توصل له، لما تطلب مساعدة من متخصص أو حد تثق فيه ينوّر لك اللي كان غايب عنك.

بس لازم الأول تدرك حجم الخراب الحادث في روحك، حجم الظلم اللي بتظلمه لعمرك، حجم الفرص اللي بتفوّتها على نفسك، وتاخد القرار، وتتعب شوية معلش عشان تنفّذه، لأنك لما تدخل في علاقة سوية ومتكافئة بعد كده، وتشوف النعيم اللي ممكن تعيشه، والفرج والبراح اللي هيتضاف لرصيدك، والمحبة اللي ممكن تقابل بيها العالم، هتزعل من نفسك قوي قوي قوي على اللي عملته فيها زمان، وهتندم إنك ما قّدرتش نفسك حق قدرها من بدري!

ليه بنخاف من الحب؟

لأن ليه فاتورة، وغالبًا مش بسيطة، والبشر أغلبهم بيميل للأخذ دون محاسبة على المشاريب.

كمان نسبة الخداع وعدم اليقين والخذلان والتخلي بقت مروِّعة في العلاقات، فالناس بتكشّ، لأنها على شعرة ومش ناقصة!

وضيف لده: عدم النضج العاطفي. يعني الناس عايزة تحب بس مش عارفة يعني إيه حب، أو عارفة عنه إنه تسبيل ومسكة إيد وورد وعشا رومانسي لكن ما تعرفش إن ليه جانب تاني، اسمه المسؤولية والتحمل والتضحية والإيثار والكفاح والتغاضي ليدوم الوداد!

فبعد ما حلاوة البدايات تخلص، ونيجي للجد، بيتخضّوا، ويبلّغوا فرار!

الحب شعلة، لو عرفنا ازاي نمسكها صح هتنوّر لنا الطريق، ولو ما عرفناش، هتحرق أرواحنا للأبد!

الانبطاح في العلاقة مع الآخر وفرط تدليله وكشف كل أوراقك قصاده بدعوى الحب، بيوصّل له رسايل سلبية كتيرة وعكس مرادك طول الوقت، زي إنك ما تقدرش تستغنى عنه.. فيترجمها بإمكانية الإساءة ليك دون توقّع رد منك أو معاتبة!

وإنه بقى مصدر سعادتك الوحيد.. فيتمنّع عليك ويقرّب ويبعد دون منطق، عشان يساومك على أوقات البهجة!

وإنك بتثق فيه.. فيلعب بديله دون انتظار عقاب أو تخيّل وجود محاسبة!

وإن الحفاظ عليه في قلبك مسألة حياة أو موت، فيكفّ عن العطاء ويكتفي بالسلب فقط!

وإنك مؤمن بيه.. فيتصرف بعجرفة وياخد القرارات دون تبريرها أو مراعاة مصلحتك فيها، أو حتى وضعك في الصورة وشرح الأمور ليك.

وإنك اختزلت كل العالم فيه.. فيطاوع فيك العُزّال والكارهين والمأجورين، ويقدّم مصلحة كل الناس عليك!

وإنك عايش عشانه بس.. فينسى إنك بشر، ليك سلبياتك وإيجابياتك، ويحبسك في إطار حديد من التصورات والتوقعات الخاصة

بيه هو، ولو اتصرفت عكس تخيّله، أو ارتكبت نفس الأخطاء اللي هو بيرتكبها عادي، يتجنن ويثور ويقول إنك اتغيرت، وما يغفرلكش ولا يسامحك أبدا!

وبعد شوية نزف والكتير جدا من "لا مش ممكن، هو أكيد بيحبني، بس أنا اللي فاهم غلط"، و"أكيد عنده ظروف" و"أكيد عمري ما هههون عليه"، بيتحوّل الأمر -بوضوح- لواحد بيدّي بس، والتاني بياخد بس، واحد بيراعي ويصون ويتحرّى ويحسّس على كلمة خوف الزلل، والتاني قطر مندفع نحو رغباته بلا محطة وصول، واحد بيُقيم بساتين للبهجة والتحقق، والتاني بيقطف كل الزهور ويصطاد كل الفراشات ويضرب كل للمبات النيون بالنبلة!

وبعد ما كانت العلاقة مُنشِّط عام للدورة الدموية وفيتامين (أ) و(ب) و(د)، وما يستجدّ من فيتامينات، بتتحول لفأس بيهدم جدار روحك كل يوم، ويلتهم حبة قلبك، ويسحب رصيدك -الواهي أصلا!- من المقاومة، ويسيبك أعزل تمامًا ومخذول للأعماق أمام قُطّاع الطرق ولصوص المشاعر وبلطجية الأحاسيس!

بس التاريخ بيقول إيه؟

إن الواهب المعطاء حي، وإن كان ميّت دلوقتي وسجين وجعه وخذلانه وعمره اللي أراقه على عتبات مَنْ لا يستحق، والسالب الناهب ميّت، وإن كان مفعم بالحياة دلوقتي ومش حاسس بجريمته وبيخطط لارتكاب المزيد، لأن الواهب عاش فعلا واختبر وعاين واقترب وتعشّم ورأى وطالع بعين الله، بعين الحب، فيما السالب كان بيأدّي ويمثّل ويبالغ من غير ما يعيش بجد ويدخل الحضرة ويغشى قلبه النور الحق!

والتاريخ برضه بيقول إن الدنيا دوَّارة، وسريعة التقلب والتغيير حد الفجيعة، وكل اللي مرّينا بيه يُوشك إنه يرجع تاني من زاوية تانية وشكل تاني ومع بشر تانيين، فمَنْ ظلم وتجبر وخَذل وأوجع وابتَلى، سيشرب من الكأس نفسها ولو بعد حين، ومن سلّم وأناب وراعى وأحسن واتقى ووفَّى، فإن له الرضا حتى يرضى.

فيه علاقات بيبقى الطرفين فيها نفسهم يرجعوا، عرفوا إن حياتهم مع بعض أيا كانت مشاكلها أهون بكتير من الفراق وإن كل واحد يحارب على جبهة لوحده. وأدركوا إن براح الفرص التانية سلم خلفي للفرار من مصير ينز وحدة ووجع وتأنيب ضمير!

لكن في اللحظة النورانية دي، فيه عفاريت كتير بتقف في سكتهم: كبرياء زائفة على خوف من تكرار الفشل على الناس هيقولوا إيه على هو اللي غلطان، وصولا لـ "قدّر الله وما شاء فعل"!

لكن الله لا يفرض علينا شيئا، سبق علمه بنتيجة تصرفاتنا لا يعني موافقته أو دعمه للخطأ، ومحاولة التمسح بيه في كل قرار غير موفَّق بناخده، مش هتعفينا من مواجهة نتيجة تصرفاتنا الغلط في النهاية، ولوحدنا تمامًا!

مرَّة صديق كان بيفضفض لي، ويحط إيدي على وجيعته: "أنا مرّة عيّطت وأنا ماسك إيدها، مش لأي حاجة، غير لأني حسيت إني بحبّها قوي، ومش عارف أعبّر عن ده غير بالدموع!"

الصديـق ده سـاب البنـت الـلي حبّهـا عمـر كامـل، لأسـباب يطـول شرحهـا، ولما خـد قـرار الرجـوع بعـد مـا بقـاش قـادر فعـلا ولا هـي قـادرة، كان كل شيء فـات، وخسـارته كانـت أبديـة.

ولحـد النهـارده بيتفـرَّج عـلى الحيـاة مـش بيعيشـها. وسـاعات يكلّمنـي في التليفـون ويسـيب الخـط مفتـوح مـا بينـا مـن غـير مـا ينطـق بكلمـة، لمجـرد إنـه كان بيحـكي لي عنهـا، فبقيـت -بشـكل أو بآخـر- مـن ريحـة الحبايـب الـلي مـا عـادش طايلهـم!

فيـه خسـارات مهـما كابرنـا ونجحنـا وخطِّينـا.. مـا بتتعوَّضـش، ومشـاعر مهـما اختبرنـا وتحايلنـا واجترأنـا.. مـا بتتكـررش، وقصـص مهـما جرّبنـا وغامرنـا وطوّحنـا إيدينـا ورجلينـا.. مـش موجـود منهـا غـير نسـخة واحـدة بـس، لكـن لمّـا عشـناها كُنـا أغبـى مـن إننـا نعـرف ده، ونعـض عليهـا بالنواجـذ.

وكلنا -في مرحلة ما وحكاية ما- أغبيا!

الحـب حلـو، لمّـا ينتهـي إلى اللقـاء والقـرب والمـودّة والرحمـة والإيثـار واحـترام الوعـود وصيانـة الأمانـة، ولعـين لمـا يبقـى مجـرد تجربـة، مرحلـة، مسـاحة نشـم نفسـنا فيهـا قبـل مـا نكتـم نفـس الطـرف التـاني!

كل الهزائـم قابلـة للترميـم، كل الفراغـات قابلـة للمـلء، إلا مـا يفعلـه الغـدرُ بالقلـب، ومـا تُمليـه الهزيمـة والبغتـة عـلى حبّـة الـروح.

فـما تعشّـموش حـد بمـا لا تملكـون، ومـا تسـتهونوش بطعنـات تقودهـا يـدٌ كانـت حبيبـة -ذات يـوم- إلى سـويداء القلـب.

سلامًا لمن تغاضى ليدوم الوصال،
وتخلّى لتستمر المحبة.

الحب -(المشاعر وليس الأفعال)- مش بالزراير والله، يعني أنا مش بشوف ظروف اللي قدّامي الأوّل مناسبة ليا من كل النواحي وهتمثّل صفقة رابحة، فأقوم ضاغط على الزرار اللي على إيدي الشمال ده فأحبه!

أو ألاقي فيه عيبين تلاتة ما يأكّلوش عيش، فأقوم موقّف البروسسينج، وناقل العطا على غيره!

عشان كده ممكن تلاقي واحدة بتحب حد قد أبوها، وواحد متجوز وبيحب واحدة تانية، وواحدة مخطوبة ومتعلقة بحد تاني، ومش شرط النماذج دي تبقى بنت وسخة على فكرة، يعني ولا ليها أنياب ودايرة على حل شعرها تخرّب البيوت الآمنة المستقرة، لأن ده -مرة تانية- غصب عنهم، مش بإرادتهم، دي حاجة ربنا ابتلاهم بيها.

ولو بصيّت لملامحهم كويس هتتأكد إنهم مش من عالم تاني، بالعكس دي أختك وزميلتك وصاحبك اللي على أول الشارع ويمكن أبوك!

آه ساعات بيبقى فيه ظلم لأطراف تانية، وفيه سياقات إنسانية لازم تتراعى، وحسابات لازم تتعمل، لكن الواقع مش دايما عادل وإنساني ومثالي، لأنه واقع.

ورفضنا للشيء لتلافي أضراره، لا يعني بالضرورة عدم وقوعه، أعتقد إننا تجاوزنا مرحلة إننا نغمّض عنينا فتختفي مشاكلنا كلها، فنضحك في انتصار وزهو، إلا لو قررنا نكمل حياتنا كلها عميان بعد كده!

وصحيح يمكن جسديا طَرَفا المحنة يقدروا يبعدوا ويهربوا، لكن قلبيا بيظلوا أسرى وعبيد ودروايش للمشاعر، بيتآكلوا داخليا وهم بيتفرجوا على الحياة مش بيعيشوها، لحد ما يقابلوا وجه رب كريم!

لكن فعليا ما حدش عارف ظروف حد، و(لا أحد غيري يعرف أن حذائي يؤلمني) زي ما بيقولوا، فنرحم الناس، وما نضبّش ونوجع ونعلِّم، لأن اللي فينا -كلّنا- مكفينا عمومًا، ومفيش كلام بيغيّر، وما حدش عارف ربنا مخبي لنا إيه بكره!

وكونك معافى في قلبك واختياراتك حتى اللحظة، لا يعني إن اختبارك انتهى، بالعكس، ده على وشك البدء في أي لحظة دلوقتي، فخلّي بالك كويس، لأن حُكمك على غيرك دلوقتي هيكون الدرجة اللي هتاخدها في الموقف نفسه بعد شوية.

يعني إنت اللي بتعلّم امتحانك بعدين.. بس دلوقتي.

فاحذر!

وإذا امتلأ الفراغُ الذي تركَه محبُوبك بسواه، فتأكد أنه لم يكن يناسبه منذ البداية، وأنك أنت الذي منحته حجمًا أكبر من حجمه!

لـو الطـرف الأول صرّح للطـرف التـاني بحبـه، والطـرف التـاني ده مـا كانـش بيبادلـه الشـعور نفسـه، فغالبـا هـو صـدّر مشـاعر مـا، أو أبـدى اسـتجابة معينـة، ادّت الطـرف الأول مـبرر وعشّـمته لدرجـة إنـه يتجاسر ويعمـل كـده، وهـو متوقـع بنسـبة كبـيرة إن الـرد يكـون في صالحـه.

وارد طبعـا يكـون الطـرف الأول موهـوم لوحـده، وعـلى تكـة، بـس أغلـب القصـص الـلي عاصرتهـا، كان الطـرف التـاني مشـارك في الإثـم بطريقـة أو بأخـرى، بيتسـلى بقـى، بيجـرّب، بيقـضّي وقـت فراغـه، بيعـوّض الـلي اتعمـل فيـه، مسـتخسر مـا ينتهـزش الفرصـة، المهـم إنـه مشـترك في جريمـة سـحل بنـي آدم كل ذنبـه إنـه حـب.

فيـه نـاس بتفـوق في المرحلـة دي وتبطـل لعـب، ونـاس بتكمّـل شـوية، وأوسـخهم الـلي بيكمّـل بـلا وعـود ولا إعطـاء نفسـه حتـى فرصـة للتفكـير، يعنـي يكتفـي ازاء كلـمات الحـب والولـه وانسـحاق المحـب بابتسـامة محايـدة وكلام مايـع مـا يتمسـكش، عشـان وقـت الجـد، وبعـد مـا يلعـب كل الألعـاب، وينحـت القلـب الـلي حبـه تمامـا، ويسـيبه عـلى الطـوب الأحمـر، يرفـع قـدام ضميره يافطـة: والنيعمـة مـا أنـا دي أوختـشي منـى!

لكـن، وهـو بيعمـل حسـاباته العظيمـة دي، وبيخـرج بـلا خسـاير، مـن وجهـة نظـره، بينـسى إن تأخـر دفـع التمـن لا يعنـي الإفـلات بالبضاعـة بـلا مقابـل، بينـسى دورة الزمـن وعـبر التاريـخ، وبينـسى إن القلـب اتسـمى كـده مـن سرعـة التقلـب والتبـدل والتحـول، وإنـه مـش ملـك حـد، لكنـه بـين أصبعـين مـن أصابـع الرحمـن يقلبـه كـما يشـاء.

إحنـا في منتهـى الهشاشـة واللـه، نفسـيا وجسـديا، فمنـين بنجيـب الجـرأة واليقـين المفـرط ده وإحنـا بندبـح وبنهيـل الـتراب!

وازاي بنآمـن كـده وبنقـدر نكمّـل حياتنـا وجثـث القلـوب مرميـة ورا ضهورنـا!

ويـا تـرى لمـا بتـترد لنـا الضربـة بنعـرف ده ذنـب مـين، ولا كـتر ضحايانـا مـا بيسـمحلناش نفتكـر؟!

ويتعلّـق العاشـق بالمعشـوق، ولـو قسـا وهجـر وأسـاء، لأنـه يتعـالى عـلى اللحظـة الآنيـة، طامعًـا فيـما يعقـب الصفـاءَ، ويـلي المكاشـفةَ، مـن حـلاوة الوصـل، ولـذّة القـرب، وغنـج العتـاب، فـإذا الوقـت الصعـب مطيّـة للمباهـج، والهجـر العابـر سـلّم لوصـل أكـثر ديمومـة.

أكـبر حاجـة تخليـك تنجـح في جـوازك: إنـك وإنـت داخـل دنيـا تبقـى مقتنـع بالطـلاق!

بمعنـى إنـك تبقـى عـارف إن لـو مـا حصلـش توافـق، أوبشـن الطـلاق متـاح، لأن إحنـا ملنـاش إلا حيـاة واحـدة ومـش هنجامـل فيهـا النـاس ولا هنصرفهـا بقشـيش عـلى حـد!

الجـواز يعنـي سـكن ومـودة ورحمـة ودفـا وإيـلاف وسـعادة ومتعـة وراحـة نفسـية، فـإن كان عـلى النقيـض مـن كل ده، يبقـى إيـه فايدتـه؟

صحيـح القـرار مـش سـهل، ومفيـش حاجـة بترجـع زي الأول، وسـاعات فاتورتـه بتبقـى تقيلـة جـدا، لكـن في أحيـان كتـيرة، الحيـاة الحقيقيـة -فعـلا- بتبـدأ بعـد الطـلاق.

لأنك بتبقى خدت خبرة كافية تمامًا لإنك تُحسن الاختيار المرة الجاية، واكتسبت قدر من المرونة يخليك أقوى وأكثر قدرة على الحكم على الأشياء.

يعني كل اللي عنده مشاكل مع مراته يتطلق؟

لا طبعا، مفيش حياة خالية من المشاكل، ولازم تحاول مرة وألف تصلح، وتتعلم تفرّق بين الحالات العارضة والحال الدائم، لحد ما تتأكد تماما إنك وصلت لحيطة سد. ساعتها اقعدوا مع بعض، وبكل احترام حددوا الخطوة الجاية سوا.

التعاسة -زيّها زي السعادة- قرار.

رغم اختلاف أسباب فشل العلاقات عموما، فغالبا بيبقى فيه قاسم مشترك أكبر بينها، هو بلا منازع: الغباء.

غباء الرغبة في الحيازة والنوال قبل الأوان، غباء الاستسلام للظروف والخوف من بُكره.

غباء عدم اليقين والتأرجح والعشم في فرص تانية مش هتيجي أبدًا!

كل يوم الإنسان بيثبت إنه لا يستحق هبة السعادة، هو جيد فقط في الشقاء واجتلاب المحنة كمغناطيس، ولما بيلاقي تنتوفة سعادة جاية له في الطريق، بيجري بالمشوار عشان يبوظ كل حاجة!

من زمان -وبشكل شخصي- فقدت إيماني بالبشر، وحُسن إدارتهم لمواردهم: القلب والعقل، وكل تجربة أقول مش هندهش، مش هتخض، لكن عبقرية الخذلان وعظمة التخلي كل مرة بتهزّني،

وتخوِّفني، وتفكّرني بكل أشباحي وعفاريتي، وإن كانت بتفسَّر لي ليه الحجر والجبال والجمادات رفضوا خلافة الأرض، والإنسان اتشملل وقال أنا أشيل: لأنه غبي، وما بيعرفش يقدَّر إمكاناته في مواجهة الأشياء والظروف، لكن المصيبة إنه مش عارف ده، ومتصوَّر إنه قادر يعمل كل حاجة في وقت واحد: يحب ويجرح ويسيب ويرجع ويخذل تاني ويفارق ويلعب ويتنطط ويعرف وينكر ويرجع تالت وعاشر ومليون، وكل مرة هيبقى قادر يصلَّح كل حاجة، ويدير دفة الأمور لصالحه، كل مرة هيبرر ويداوي ويلعب بالتلات ورقات ويلغي الطرف التاني ويحقق اللي هو بس شايفه، لكنه بيكتشف -بالطريقة الأصعب على الإطلاق- إنه واهم، وأهبل، وإن اللي راح مش بيرجع، ولو رجع عمره ما بيكون بنفس بهاءه الأول وعفويته.

لكن ما حدش بيتعلّم، ما حدش بيحس بوجع غيره، وكلنا لما بتجلنا لنا الفرصة بنجرح ونخون ونغزل ضفيرة جديدة في سجادة الألم الكونية المهولة.. كلنا بلا استثناء.

هتفضل تتحمل منه حاجات كتير وصعبة وتفوق طاقة البشر، وكل اللي حواليك مستغربين من قدراتك الخارقة، وبيلوموك وهم بيضربوا كف على كف، وإنت بتبتسم في قلة حيلة، لحد ما تيجي تفصيلة تافهة وعبيطة وأقل من إنها تذكر، فتنفجر، وتهد العلاقة على راسك وراسه، بلا لحظة تردد واحدة!

إنت مش ضعيف، لكن اتحملت أكثر مما ينبغي بالفعل، استهلكت الشمعة من الطرفين، زقّيت العلاقة بالتغاضي والمعلش، لحد ما بقيتش قادر تطنّش أكتر من كده، وما تنصاعش للعلامات.

ومـع إن كان ممكـن تكمّـل -زي مـا عملـت قبـل كـده كتـير- وتـزوق تـاني لقـدام، لكـن روحـك فضيـت، ومفيـش مصـدر ، ولا حتـى هـو، يقـدر يشـحنها تـاني، والمفاضلـة دلوقتـي مـا بقيتـش بـين حيـاة فيهـا حـب وحيـاة مافيهـاش، لكـن بـين حيـاة ولا حيـاة!

ارحمـوا حبايبكـم مـن الوصـول لمرحلـة حـرق المركـب والبحـر والسـمك والشـط، عشـان يقـدروا ياخـدوا نفسـهم، وينقـذوا قلوبهـم -عـلى آخـر لحظـة- مـن قضمـة الصقيـع!

الصـدام بيقـع لمـا يبقـى فيـه طـرف عايـز علاقـة عابـرة ذات منافـع معينـة ومحـددة سـلفا بـصرف النظـر عـن رغبـات الطـرف التـاني واسـتعداده وملاءمـة المطلـوب مـع خطتـه العامـة للحيـاة، في الوقـت الـلي الطـرف التـاني بيبحـث عـن اسـتقرار وهويـة ويمكـن شـكل اجتماعـي معـين وإشـباعات محـددة.

ولـو الطرفـين مـا كانـوش واضحـين مـع يعـض مـن الأول بمـا فيـه الكفاية لمعرفـة خارطـة طريـق كل واحـد ونواياه، يبقـوا بيضيعـوا وقتهـم وبيسـحلوا بعـض وبيخصمـوا مـن رصيـد اسـتقرارهم النفـسي كتـير قـوي لحـد مـا -عاجـلا أم آجـلا- الـورق بيتكشـف، وكل واحـد بيتحـط قـدام حقيقـة الآخـر وبتقـع الصدمـة!

وفي مسـتوى آخـر مـن الغبـاء بعضهـم بيعانـد ويقـرر يكمـل عـلى أمـل زائـف إنـه هيقـدر يغـير وليفـه، وطبعـا ده مـا بيحصلـش، فتقـع الطعنـة التانيـة الـلي بتدمـر مزيـد مـن رصيـد السـلام النفـسي وتحمّـل الحيـاة لـدى صاحبهـا!

والتجربة والتاريخ والجغرافيا كمان والله بيقولوا إننا ممكن نوفر وقت كبير قوي لو حطينا ورقة على صدرنا في بدء العلاقة فيها طلباتنا بوضوح وصدق: أنا عايز حب بلا التزام، عايزة عريس، عايز أعط، عايزة أبقى أم، عايز أصاحب، عايزة حب، عايز أكوّن أسرة، عايزة أتفسح وأسهر، عايز... عايزة...

لكن -غالبا- إحنا عايشين بس عشان نكرر أخطاء الآخرين بدل المرة ألف، ومصممين كل مرة نتصدم إنها أسفرت عن نتائج مختلفة!

الاحتياج بيقوّي الوهم، ويخلينا نقلّب في دفاترنا القديمة، ونضفي صفات مش حقيقية على اللي فاتونا، لدرجة إننا ممكن ننسى مصايبهم، ونلبّسهم جناحات، ونتمادى فنتصوّر إننا اللي أسأنا ليهم واتسببنا في الفراق!

لا دية لمن ألقى بقلبه على نصل ذابِحهِ، ولا تعزية لمن حمل كفنَه بين يديه ليسترضي قاتله!

معظم النار من مستصغر (العشم)!

مشكلتنا الحقيقية مع اللي بنسلّمهم قلوبنا
إننا ما بنقدرش نشوفهم على حقيقتهم:
أشرار وأصحاب منفعة!

عشان كده جلّ وقتنا معاهم بنقضّيه في محاولة التماس الأعذار ليهم، وإيجاد أي مخرج لإساءتهم وتجبّرهم علينا وعدم معاملتنا بما نستحق أو -على الأقل- زي ما بنعاملهم!

يمكن عشان ما نعترفش إننا بالسذاجة دي، ولا بغفلة القلب والحماقة اللي تخلينا كل مرة ناخد نفس الضربة، يمكن عشان ما نضطرش نغيّر شيء اتعوّدنا عليه وبقى مغروز في تفاصيل حياتنا ونبدأ كل حاجة من الأول، أو نرجع تاني لوحدتنا وغربتنا، يمكن عشان لسّه عندنا أمل تحصل المعجزة ويحسّوا بينا ويفوقوا ويلحقونا قبل ما نضيع من بين إيديهم، يمكن لأننا بنحبّهم فعلا رغم عيوبهم مش عشان مميزاتهم!

لكن في النهاية، مهما عافرنا وضحّينا وهربنا وكابرنا: طاقتنا بتخلص، وأرواحنا بتبقى مخوَّخة، وبتضيق الدنيا علينا بما رحبت، وبنلاقي نفسنا برضه واقفين قدام السؤال الجارح نفسه: هو إحنا ليه بنعمل في نفسنا كده؟ وإذا كنا هُنّا عليهم ورخصنا في نظرهم للدرجة دي، فليه نهون على نفسنا؟!

عبارة الست اللي بتقول: "دا الصَبر عايز صَبر لوحده"، بتلخّص المأزق الوجودي اللي العاشق بيجد نفسه فيه فجأة، لما تحصل بينه وبين محبوبه حاجة، ويبقى حلّها الوحيد في الصبر، وانتظار ما تأتي به الأيام، فحتّى لو وافق نظريًا على الانتظار، ومن ورا قلبه، وبحكم إنه لا يملك الرفض، السؤال الملحّ هيبقى: هيعمل ده ازاي؟!

منين هيجيب الطاقة اللي تخلّيه يراقب تغيّر الحال، وزوال ما تعوّد عليه، وتحوّل النعمة لنقمة، وهو مكتوف اليد، ومش قادر يعمل أي

حاجـة؟! وازاي هيقـدر يـزقّ الثـواني والدقايـق والسـاعات والأيـام، عشـان يوصـل للّحظـة المرتقبـة، سـواء هيصـدر فيهـا حكـم بالإعـدام أو البـراءة؟! بـأي وسـيلة يقـدر يوقّـف نبضـات قلبـه إذا صاحـت، وهففـان روحـه إذا اشـتعل، وتـوق نفسـه لسـابق العهـد مـع المحبـوب إذا تأجـج؟!

ازاي هيقـدر يحـارب سـيل الذكريـات والصـور والعبـارات والمواقـف اللـي هتتسـلّط عـلى حبّـة قلبـه -مثـل لهـب صهـر المعـادن!- وتفضـل طـول الوقـت ترسـم لـه مشـهدين، واحـد ألـوان وهـم بيتكلمـوا لآخـر مـرة مـع بعـض زي عادتهـم، وبيضحكـوا، وينكّتـوا، دون معرفـة بمـا تخبئـه اللحظـات التاليـة، والتـاني أبيـض وأسـود، مـش بايـن فيـه غـير ضهـر كل واحـد فيهـم وهـو بيمـشي في اتجـاه معاكـس للتـاني!

فيـما إنـه واقعيًـا، كل الطـرق لممارسـة فضيلـة الصـبر، بتُثبـت فشـلها الفـادح في النهايـة، أو بتنجـح أول يومـين تلاتـة، بفعـل حـلاوة الـروح، وبعديـن تفرقـع في وش صاحبهـا، أو تصيبـه بحالـة عكسـية مـن البـلادة، فتغـيّر جيناتـه للأبـد، فيصعـب عليـه اسـتعادة نفسـه ثانيـة، حتـى لـو تغـيّر الحـال لعـين مطلوبـه!

فـلا تُطيلـوا عـذابَ محبّيكـم، سـاعدوهم عـلى برّكـم، وقـصّروا أيـام الغيـاب، وفرّجـوا كربـات انتظارهـم، وسَـكَرات خوفهـم، ولا تُقنطوهـم مـن رحمـة اللـه.

كانـت هنـاك أيـام، أسـتيقظ فيهـا مـن تلقـاء نفـسي مبكـرا جـدا، دون منبـه لحـوح، ولا اتصـال مـن صديـق، كنـت سـعيدا وأريـد أن أقابـل العـالم، وأدردش معـه قليـلا ونحـن نـشرب شـايا بالنعنـاع ونسـتمع لمزيـكا رائقـة،

قبل أن أرتدي أفضل ما عندي وأهرع لقطف ابتسامة صباحية من جنة حُسنِك!

أيامٌ مجيدةٌ كنت خلالها قادرا على فعل كل الأشياء التي أعجز عنها الآن، ومقابلة كل البشر الذين أتهرب منهم الآن، والوفاء بكل (الديد لاينز) التي ستجري ورائي -حتما- يوم القيامة!

كانت هناك أيام، كنت فيها -فعلا- أفضل، وأقوى، وأحدّ بصرا وبصيرة!

كانت هناك أيام...

كانت...

كتير بتكمّل في تجربة، عشان مش عارف لو خِلصتْ فعلا هتعمل إيه!

طول الوقت بتتخيّل الفراغ المرعب اللي هتبقى فيه بعدها، وعدم وجود أي خط تاني في حياتك تِمشي عليه، فتفضل واقف مكانك، ومتبّت في الحالة، مستنّي المعجزة، وأحيانا مش مستني ولا حاجة، واقف وخلاص!

الانشغال -من وجهة نظرنا في الوقت ده- حتى لو بلا هدف ولا نتيجة مستقبلية، بيبقى أحسن من الفراغ والموت التام ساعات!

من أرادك حقًا.. نالك.

اللهم لا تكل أمر قلوبنا لمن لا نهمهم، ولا تسلم مفاتيح أرواحنا لمن لا يعتبروننا أهلا للمحبة، ولا تشعل فينا شغفا لن يروى، وعشقا لن يكتمل، وأملا لن يقف على قدميه، وفرحا تتجاور شهادة وفاته مع شهادة ميلاده.

واعلم -أعزّك الله- أن جُرح الحب إذا لم يُغلق على نظافة، بُعث مرةً أخرى على رأسِ كلِ فجيعة، وبين يدي كل محنة، فأسال دما حسبتّه جف، وأوجع قلبا ظننتّه تسلّى، وأحرق مهجة خلتهّا برئت واستقامت لها الحال. فلا تبخل على نفسك بنهايات ناصعة البياض، وتخارج لطيف العبارة رشيق الإشارة، فلعل الدنيا تدور، والحظ يدور، والنصيب يدور، وتلتقي الوجوه ثانية، في ظروف أكثر رحمة، ومساحات أكثر قربا، فتصل ما انفصل، وتخيط ما انقطع، وتجبر كسر ما انفطر، وتستأنف حياتك تماما من النقطة التي متَّ شوقا، ودعوت ربك سرا وجهرا وليلا ونهارا، أن تُحلّق منها.

خد القرار اللي تقدر تبصّ في وشّه وإنت قاعد لوحدك آخر الليل، مجردا من الحول والقوة والعزوة والصاحب والولد، وما تحسش بقبضة باردة بتعصر قلبك.

بعد خروجك من العلاقة، بتشوف كل حاجة بشكل تاني: ريحة الهوا والناس والطرق والعربيات والإفيهات وتاسكات الشغل والمزيكا والأكل ويوم الأجازة!

شيء أكبر من إنّك تشاور عليه اتغيّر جوّاك للأبد، وخلّى العالم كله كأنه جديد عليك، أو إنت اللي جديد عليه، ماتت الذاكرة المشتركة ما بينكم، وأصبحت محتاج -زي الطفل اللي بيتعلم المشي- حد يسندك، ويلفت انتباهك للحاجات من أول وجديد، عشان تتوازن وتقتنع وما تغلطش، لكنك للأسف هترتنح، وهتغلط كتير قوي، وهتقع، وهتتجرح، ورجلك هتزلّ في تجارب فرعية كتير، هتفتكرها طوق نجاة في الأول، لكنها في الحقيقة طوق حوالين رقبتك!

وكأن هزيمتك أول مرة، بقت مبرر لاستمرار الهزيمة باقي عمرك! أو كأنها لعبة وكل اللي كان حيلتك حياة واحدة بس، ضيعتها بغبائك!

الهزيمة في حب صادق، ممكن تبقى آخر مسمار في نعشك، حتى لو فضلت واقف على رجلك، بتضحك وتتكلم وتمثل، ورفضت تمضي شهادة الوفاة، اللي اسمك الثلاثي مكتوب في أول سطر فيها، وممكن تبقى بداية فوقانك وتحولك لإنسان أفضل وأكثر حقيقية، واللي بيحدد ده: نظرتك لنفسك وإذا ما كنت تستحق تعيش الحياة فعلا ولا لا تستحق أكتر من إنك تبقى مجرد سطر في قصة أحدهم!

بعد انتهاء العلاقات، خصوصًا لو كانت النهاية نيّة ومش مطبوخة كويس، أو مؤلمة وجارحة وبتجيب دم، أو غير متوقعة وغير منصفة، طبيعي جدا تتمنى للطرف التاني إنه يتنيل على عينه وما يتوفقش!

طبيعي جدا تتمنى له الفشل من بَعدك وإن ربنا يخرب بيته، عشان يعرف قيمتك وأهميتك ويندم على الفرصة الكبيرة اللي ضيعها على نفسه!

إحنا مش ملايكة، ولا صوفيين متجردين، ولا من أولياء الله الصالحين، فطبيعي جدا تبقى دي مشاعرنا، وتبقى دي عتبة تفكيرنا الأولى ساعة الصدمة وفي عز الوجع، دون أن يعني هذا من قريب أو بعيد إننا أشرار ومصاصي دماء وبنتسلى بفقء أعين الناس وقت الفراغ!

وحتى بمنطق ديني: الذنب لا يُحتسب إلا إذا وقع، أما التفكير فيه دون فعل فلا قيمة له، فإنك تتمنى له الشر، ما دام لم يتحول إلى فعل وسعي حقيقي لنقله إلى حيز التنفيذ، فليس شرا، وإنما مجرد تنفيس ومحاولة لنفث الكبت ووجع القلب والذكريات الزبالة، لإعادة التوازن النفسي وإخراج الصديد وطرح الفرص والإمكانيات على مائدة البحث.

فما تشقش على نفسك، وتحس بالذنب وبالخطيّة لما الأفكار الشريرة تستفرد بيك، وفي الوقت نفسه سيبها، ما تدخلش في صراع معاها ولا تحاربها وتزق فيها، عشان ما تأكّدش وجودها جواك، بعد شوية هتمشي لوحدها وهتدي الفرصة لإرادة الحياة جواك ترفع راسها وتنتشلك من كل المشاعر السلبية دي، وتوريك السكة الجديدة اللي لازم تمشي فيها.

أخطر العلاقات وأسوأها على الإطلاق، هي اللي بتعقب الانفصال، بيبقى الواحد عايز يعوَّض خسايره بأقصى سرعة ممكنة، ويثبت لنفسه وللطرف التاني إنه مش غلطان، وإنه لُقطة، وألف مين يتمنّاه، ويخلّيه يندم على يوم فراقه!

ودي المرحلة اللي بنلتهم فيها الأَوَنطة بأريحية مطلقة، وعن طيب خاطر، ونصدق أي حد يقول لنا كلمتين حلوين، من غير ما نمرّرهم على عقلنا خالص، أو نقف لحظة واحدة عشان نفكر ونحسب ونوازن

بـين الخيـارات ونشـوف الإنَّـة فـين، بـل وبنحـارب الـلي بيحاولـوا يلفتـوا انتباهنـا لـلي بنعملـه في نفسـنا، وممكـن نخسرهـم ونصنَّفهـم في خانـة أعـداء النجـاح والحاقديـن بـكل سـهولة، لمجـرد إنهـم بيقولـوا كلمـة حـق!

والصـح إننـا ناخـد هدنـة معقولـة عقـب انفضـاض أي علاقـة، نقـف عـلى مسـافة عادلـة مـن كل حاجـة وكل شـخص، لحـد مـا نسـتوعب الأشـياء، ونعـرف راسـنا مـن رجلينـا، ونفهـم ازاي وصلنـا للنقطـة دي، وازاي مـا نعملـش في نفسـنا كـده تـاني، ومـا نحاولـش نستنسـخ الـلي فـات في الـلي جـاي، أو نـدور عـلى التجربـة نفسـها بحذافيرهـا مـع شـخص تـاني، لأن مـا حـدش شـبه حـد.

الأخطـاء والسـقطات وسـوء الحكـم عـلى الأشـخاص والفشـل في تأويـل الحـالات أمـر طبيعـي للغايـة، ومـا حـدش معصـوم منـه: الأذكيـاء والأغبيـاء، الـلي بيقطَّعـوا السـمكة وديلهـا والـلي مـا بيعرفـوش يفكّـوا الخـط في العلاقـات، حاجـة كـده زي الضريبـة الـلي لازم تتدفـع عشـان تعـدّي، ودي مـش مشـكلة في حـد ذاتهـا، المشـكلة في عـدم برمجـة الخـبرة السـيئة في المـخ، والاحتفـاظ بيهـا عشـان نصنـع مضـاد حيـوي ليهـا وتطعيـم مـا يخليهـاش تخيـل علينـا تـاني، وبالتـالي السـقوط في البـئر نفسـها كل شـوية.. كل شـوية.. كل شـوية!

انتهـاء العلاقـات أحـد أصعـب الآلام في الحيـاة، ومـا بنقـدرش نتجـاوزه بـين يـوم وليلـة، وأثـره بيمتـد لآخـر العمـر في حـالات بعينهـا، لكـن -عـلى الجانـب الآخـر- الإنسـان بطبعـه طـمّاع، ونسـبة الحموريـة في دمـه لا يُسـتهان بيهـا الحمـد للـه، وبيفضـل يعمـل نفـس الحاجـات كتـير قـوي وهـو منتظـر نتيجـة مختلفـة، ومهـما ده مـا حصلـش، مـا بيقللـش عنـاده

وغـرروه، كأنـه في مهمـة مقدسـة لحبـس نفسـه في سـجن الحـزن والحـيرة للأبـد، ثـم بـكل وقاحـة يقـول: ليـه يـا رب ده بيحصـل لي ده أنـا بالـذات؟!

أقول لك ولا تزعلش؟!

ابـذل كل مـا تسـتطيع للحفـاظ عـلى علاقاتـك، لكـن لـو انتهـت غصـب عنـك، اقـف، وفـك إيـدك، وسـيب الحاجـات تنتهـي، واسـمح لنفسـك بالحـزن، ومـا تعملـش فيهـا سـوبر مـان، واشـغل وقتـك وابعـد عـن الحاجـات الـلي بتفكـرك بيهـا واهتـم بنفسـك وغـيّر أسـلوب حياتـك عـلى قـد مـا تقـدر ووسـع دايـرة معارفـك والنشـاطات الـلي بتعملهـا، وواحـدة واحـدة، السـم هيخـرج مـن دمـك، وهتقـف عـلى رجلـك، وتبقـى مسـتعد لعلاقـة جديـدة عـلى نضافـة، مـن غـير مـا تظلـم نفسـك ولا تظلـم طـرف تـاني ملـوش ذنـب.

وتذكر أنه لا يوجد أي شخص لا يمكن تعويضه.

أي شخص.

الـلي بيحـب حـد، بيبقـى في لاوعيـه -ولـو للحظـة- رغبـة دفينـة غـير معلنـة إنـه يسـيبه ويلـم الـدور، عشـان يتخلـص مـن عـبء العلاقـة ومسـؤولياتها وتبعاتهـا وتعقيداتهـا، ويسـتعيد حريتـه مـرة تانيـة ويعيـش مـن غـير وجـع دمـاغ.

والـلي شـغال في شـغلانة، مرتـاح أو مـش مرتـاح، بشـكل أو بآخـر هتلاقيـه في لحظـة مـا برضـه، بيفكـر يسـيبها، ويشـتغل في حاجـة بتاعتـه أكـتر وتناسـب إمكاناتـه وطموحاتـه بشـكل أكـثر تحديـدا، أو يمكـن مـا يشـتغلش خالـص أصـلا!

والـلي متجـوز، ومهـما كانـت قـوة علاقتـه بالطـرف الآخـر، نفسـه -في اللاوعـي برضـه- ينفصـل ويتحـرر ويبقـى خفيـف ويشـوف الدنيـا مـن منظـور جديـد.

الرغبـات الدفينـة دي، وتهويمـات العقـل الباطـن، والـلي ممكـن تكـون لحظيـة وعابـرة، ونتـاج تعـب أو إرهـاق أو خـذلان أو إعـادة تقييـم أو تغـير في الشـخصية بمـرور الوقـت، ممكـن تتحكـم فينـا وفي تصرفاتنـا مـن غـير مـا ناخـد بالنـا، وتغـير خريطـة علاقتنـا بنفسـنا وبالآخريـن.

فتلاقـي المحبـين بيهبشـوا في بعـض فجـأة عـلى سـبب تافـه، وتلاقـي المتجوزيـن ممكـن يوصلـوا للطـلاق بـلا أي مـبرر قـوي ملمـوس، وتلاقـي واحـد صحـي الصبـح راح قـدم اسـتقالته ورجـع قعـد عـلى القهـوة بـكل هـدوء ودون أي خطـط مسـتقبلية محـددة!

عشـان كـده، لازم نتعـود نسـحب مشـاكلنا ومخاوفنـا ورغباتنـا المكبوتـة للنـور، ونناقشـها، ونفتـش وراهـا، ونعـرف أسـبابها، ونحاول نعالجهـا ونطمنها ونوفـر لهـا خـروج آمـن، اتقـاء للمفاجـآت وردود الفعـل غـير المـبررة.

لازم نبقـى صرحـاء مـع أنفسـنا وعارفـين حدودنـا وإطارنـا الأخلاقـي ومنظومتنـا القيميـة ومسـاحات المغامـرة في حياتنـا ومواطـن الضعـف.

الإنسـان كائـن معقـد جـدا، ومفيـش كتالـوج موحـد ينطبـق عليـه، وبقـدر ذكائـه فهـو غبـي، وبقـدر شـجاعته، فهـو أحمـق، وبقـدر طيبتـه فهـو شريـر، والتعامـل معـاه لازم يكـون عـلى نفـس القـدر مـن التعقيـد، والحيطـة، والانتبـاه، عشـان تبقـى النتايـج النهائيـة مرضيـة إلى حـد مـا، ومفيـش فيهـا كـوارث تطيـح بمكتسـباتنا الـلي تعبنـا فيهـا عمـر كامـل ومـع ذلـك ممكـن تضيـع في لحظـة!

ابعِدوا شويّة عن اللي بتحبّوهم، ما تعرفوش كل حاجة عنهم، ما تتشاركوش في كل شيء، ما تخرجوش طول الوقت مع بعض، سيبوا مناطق رمادية صغيّرة ما بينكم، مساحات شخصية مش مطروقة، أصدقاء مجهولين. الاكتشاف الكامل بوابة الزهد التام.

ومن قال إن "البعيد عن العين.. بعيدٌ عن القلب"، جحشٌ كبيرٌ، فالشوق تُسكِنه -وقتيًا- نظرة للمحبوب، فإن لم تتوافر، تكفَّل القلب بنسخ المحبوب في كل ما يحيط بالعاشق: البشر والأثاث والسيارات والشوارع والمباني، حتى لم يعد يرى سواه أو يفكر في غيره، فيستفحل شوقُه ويتعاظم وَجْدُه، أكثر مما لو كان المحبوب أمامه، ملء السمع والبصر!

لما بنحب.. بنشوف اللي بنحبّهم ملايكة بجناحات، منزّهين عن الخطأ، وليهم حق في كل اللي بيعملوه، وأي تصرف غبي بيصدر منهم، بتتسع صدورنا ليه وبنلاقي له 100 تفسير منطقي وبرنس في نفسه، ويمكن ده اللي بيصعّب الدنيا أكتر بعد الانفصال: إننا بنتخيل إننا خسرنا كائن سماوي مش هيتكرّر.

لكن لو قدرنا من الأوّل نحط كل واحد في حجمه الحقيقي -بما في ذلك أنفسنا- هنبقى أكثر قدرة على قيادة العلاقة لبرّ الأمان وتخطي العقبات من ناحية، ومن ناحية تانية هنعرف نقرأ العلامات صح، وما نتخدعش، أو نطنّش مؤشر حيوي وخطير ذو دلالة مهمة في مسار العلاقة.

ولـو مـا حصلـش نصيـب هيكـون عندنـا مـن الوعـي الـلي يخلينـا نقفـل الصفحـة دي باحـترام وإنسـانية ودون إراقـة الدمـاء وزرع الضغينـة، والاسـتعداد لفتـح الصفحـة التاليـة بسلاسـة وأريحيـة.

الحـب مـش تسـبيل وخروجـات في ضـوء القمـر وعـش العصفـورة يقضّينـا وسـلانترو ومـاك، إنمـا بنيـانٌ عـلى شـفا حفـرة، مركـبٌ ضيـقٌ لا يتسـع سـوى لفردين في خضـم بحـر عرمـرم، ثقـبٌ ضئيـلٌ في جـدار مُصمـت يوشـك أن ينقـضّ، ولا يقـدر عليـه سـوى أوليـاء القلـب الصالحـين.

أسـوأ مـا في انتهـاء قصـة حـب بـين رجـل وامـرأة، أنهـما لـن يعـودا صديقـين مـرة أخـرى!

دايمًـا بنيجـي عـلى الـلي بنحبّهـم، وبنتجـاوز معاهـم كل الحـدود، عشـان مطمّنـين مـن ناحيتهـم، وعارفـين آخرهـم، وواثقـين في قدرتنـا عـلى مـداواة غضبهـم مننـا أو إحباطهـم مـن تصرفاتنـا، لكـن مـع الوقـت بتختفـي مـن قـدام عنينـا الفـروق الجوهريـة بـين الـلي يمكنهـم احتمالـه فعـلا والـلي لا يمكـن بـأي حـال مـن الأحـوال التسـاهل معـاه، لحـد مـا بنصحـى في يـوم عـلى حياتنـا معاهـم -حرفيـا- مرميّـة في الشـارع!

وسـاعاتها الحسـاب مـش بيبقـى عـلى آخـر موقـف حصـل بينـا بـس، لكـن عـلى الفاتـورة كلهـا بـدون حـد أقـصى لـرد الفعـل!

يمكـن بنعمـل ده بغبـاء ومـن غـير قصـد ولا تدبّـر في العواقـب، لأننـا في غايـة الهشاشـة والعِـوز، وطـول الوقـت محتاجـين حـد نسـند عليـه ونتعـرّى قصـاده وإحنـا مـش مضطريـن للتبريـر أو إرهـاق الذهـن في إسـباغ

المنطقية على تصرفاتنا في حضرته أو ادّعاء الانصياع لمسلّمات المجتمع وشكلانيات العادات والتقاليد، حد نكون معاه على طبيعتنا الحقيقية من غير أقنعة ولا حسابات المكسب والخسارة ولا تركيز في التفاصيل وتفاصيل التفاصيل.

لكن المشكلة إننا وإحنا بنعمل كده، بننسى إن هو كمان محتاج مننا اللي محتاجينه منه!

الموضوع معقد للغاية، ومساحات الصح والغلط فيه مش محددة بقلم أحمر وقاطعة الثبوت والدلالة، ومفيش حد هنا شرّير بشكل مُطلق ولا خيّر بشكل مطلق، وقدراتنا مش زي بعض، والفروق الفردية بينا أكبر من أن يتم حسابها وحصرها بسهولة، ومفيش -للأسف- كتالوج موحّد للعلاقات يمكن الرجوع إليه للاسترشاد والتوعية، لكن فيه مبدأ عام وأساسي أعتقد لو حطّيناه قدامنا طول الوقت يمكن يكون دليل على السكة، وبداية لرحلة إعادة التوازن لعلاقتنا المهمة واللي فارقة معانا في الحياة: ما تحوجوش حبايبكم لغيركم.

ما ينفعش تستجدي الحب. تمد إيدك كل يوم وتبص له بعيون مهزومة وتقول له:: أنا بجري على قلب مكسور شوية حب لله، وتصمم تفضل في حياة شخص شايفك مجرّد مرحلة، أو حلقة وصل بين تجربة فاتت وتجربة جاية، أو جسر بيعدّي عليه للوصول لذاته، تاركا قلبك نهبًا لكآبات الوحدة وشجون الانكسار، على أمل إنه يحس بيك في يوم، ويعوّضك أيام السهر والألم والدموع والخوف والرعب من يوم يجي وهو مش معاك، أو يوم يجي وإيده في إيد حد غيرك،

وإنـت واقـف مسـتخبي بعيـد، بتبـص لـه مـن ضهـره، زي مـا اتعـودت طـول علاقتكـم!

الحـب زي المـوت، قـرار في اتجـاه واحـد، مفيـش فيـه مفاوضـات، ولا انتظـار، ولا واسـطة، ولا مجاملـة، ولا جـبران خواطـر، ولا تغيـير حيثيـات الحكـم بعـد صـدور القـرار.

يا موجود يا مش موجود.

وإنـت عـارف كويـس قـوي إن مفيـش أمـل، مفيـش سـكة تانيـة، مفيـش طـرق خلفيـة ونوافـذ متسـابة مفتوحـة عـن طريـق الخطـأ، مفيـش معجـزات، واعترافـك أو عـدم اعترافـك بـده، مـش هيغـير حاجـة!

وعـارف كـمان إنـك مـش هتبطّـل تسـتناه، وتشـوف نفسـك بتتخلـق في حضنـه، وتحـكي عنـه للسريـر والسـتارة والموبايـل والكتـب والشـجر والبطاطـس المحمـرة وحنفيـة المطبـخ! ولا هتبطّـل تلجـأ للسـما وتدعـي يكـون مـن نصيبـك وإنـت شرقـان بالعيـاط، ولا هتبطّـل كل يـوم تتكـوم عـلى سريـرك لوحـدك في عـز الليـل، تبـص في السـقف لحـد الصبـح، مـن غـير مـا تـدوق طعـم النـوم، وحكاياتـك معـاه بتتكـرر قدامـك، ذكـرى ذكرى ولقطـة لقطـة وكلمـة كلمـة، وقلبـك بيرجـف مـن اللهفـة والخـوف والألم واللوعـة والشـوق والحنـين والانتظـار، وبتنبـش بضوافـرك وسـنانك عـن أي حاجـة ممكـن تغـيّر الوضـع المسـتحيل.. ومـا بتلاقيـش!

وعـارف أكـتر إن الدايـرة الجهنميـة الـلي بلعتـك دي عمرهـا مـا هتتكـسر، إلا بانكسـار قلبـك نفسـه مليـون حتـة، وعـدم صلاحيتـه مـرة أخـرى للاسـتخدام الآدمـي!

غيـاب الأحبـاب جسـديًا بالمـوت، رغـم قسـوته وصعوبتـه، بيقفـل دايـرة التخيـل والاحتـمالات عنـدك تمامـا، ويوقّفـك عنـد عتبـة معينـة مـا بتتجاوزهـاش أبـدا، وده الـلي بيسـاعدك مـع الوقـت عـلى التحمـل وربمـا النسـيان، لكـن غيابهـم بالفـراق، بيوقّعـك في إشـكالية أشـبه بالرمـال المتحرّكـة، الـلي كل مـا قاومتهـا أكـتر، غصـت فيهـا أكـتر: هـو أنـا ممكـن أشـوفه تـاني؟ هـو ممكـن الـلي بينـا يرجـع في يـوم؟ هـو أنـا هكمـل ازاي عـادي كـده مـن غـيره؟ هـو مـين فينـا الـلي غلطـان أصـلا... مـا يقودنـا في النهايـة للاعـتراف إن المـوت -في أحيـان كتـيرة- بيكـون أكـثر رحمـة مـن الفـراق!

فما تسحلش حد معاك.

عايـزه؟ حـابي عليـه، واغنيـه، ومـا تحوجـوش لغـيرك، والضـم حلمـك في حلمـه، وعيشـوا يـا أخـي.

مش قدّها؟ الزم مكانك، وما تموّتوش وهو حي!

القلـب مـش معمـل العلـوم بتـاع ثانـوي، الـلي كنـا بننتهـز فرصـة انشـغال المـدرس لمـا ندخلـه سـاعات، عشـان نلعـب ونجـرّب، ونحـطّ حاجـات فـوق حاجـات، يمكـن بالصدفـة تـضرب معانـا، ونوصـل لاخـتراع يقلـب موازيـن البشريـة!

مـا تحكمـش عـلى أي تـصرّف وإنـت جـوّا العلاقـة إنـه حلـو أو وحـش، غـير بعـد مـا توصـل لعتبـة فارقـة ونهايـة مُرضِيـة.

لأن الكويـس والهايـل والجميـل، لـو انتهـى بالفـراق والخـذلان والتخـلّي ووجـع القلـب، يبقـى مـا كانـش زي مـا إنـت فاهـم، كان لعـب بقـى أو

تقضيـة وقـت أو تسـلية أو مصيـدة... أو... أو... لكنـه قطعًـا مـا كانـش صـادق ولا حقيقـي.

أمـا إذا انتهـى لصالحـك بـأي طريقـة ممكنـة، فقـول شِـعر براحتـك فيـه، وباهـي بحسـن اختيـارك زي مـا إنـت عايـز.

إحنـا بنفـرح بأقـل حاجـة، ومـا بنصـدّق نضحـك وننبسـط، لكـن مـش كل النـاس زيينـا، فيـه نـاس محترفـة، بترمـي لنـا عَضمـة عشـان تاخـد قصادهـا جَمَـل، وتفضـل تمـد حبـل الأمـل المزيـف لحـد مـا يلـفّ حوالـين رقابينـا ويخنقنـا!

وفي الوقـت الـلي بنتصـوّر فيـه إننـا خـلاص وصلنـا الـبر وعدّينا، بنكتشـف فجـأة إننـا بقينـا في عـرض البحـر خـلاص، بدون سُـترة نجـاة ولا حتـى تليفون حـد نبـكي معـاه عـلى الخـط وإحنا بنغـرق!!

وإحنـا جـوّه التجربـة بنبقـى مصدّقينهـا قـوي، ومقتنعـين بيهـا تمامـا، ومعتقديـن إنهـا تجربـة العمـر كلـه، وبنفـترض تلقائيـا إن الطـرف التـاني زيينـا بالظبـط، ويمكـن أكـتر، ومـا بنفوقـش مـن وهمنـا غـير لمـا يصـدر منـه تـصرف مـش متوقعينـه أو مخالـف للنسـق العـام الـلي راسـمينه للحدوتـة، فنقـف ثانيـة، ونبـص مـن بـرّه ذواتنـا، فنكتشـف المصيبـة!

(زي مـا بتبقـى جـوا أسانسـير وتيجـي عليـك لحظـة مـا تبقـاش عـارف هـو واقـف ولا بيتحـرك غـير لمـا تبـص عـلى العتبـة الثابتـة بـرّه، لكـن طـول مـا إنـت جـزء منـه وجـواه، هتفضـل الأمـور ملتبسـة عليـك!)

بنكتشف إننا في وادي وهو في وادي تاني، إحنا شايفينه أبد، وهو شايفنا مرحلة، معتقدين إنه دوا، وهو حمل جديد هياخد مكانه على رفوف القلب!

ودايما هتلاقي عنده مبرر عظيم، وحجة ومنطق ودنيا!

وسواء عاتبنا أو ما عاتبناش، انفجرنا ودبدبنا برجلينا وخربشناه بضوافرنا أو لفّنا الصمت ونزل علينا سهم الله، فالنتيجة دايما واحدة: إحنا اتخدعنا، مشينا طريق جديد مش بيودي لأي حتة! لبّسنا القلب توب حداد وهو لسه في عز شبابه! خسرنا وقت وعمر مش راجع تاني!

ومفيش حل!

طول ما قلبنا بينبض هنحب، وطول ما إحنا ماشيين لوحدنا في سكة طويلة هنشتاق، وطول ما راسنا محتاج صدر يرتاح عليه، هيفضل يلف حواليه لحد ما يلاقيه!

وطول ما فيه بشر.. هيفضل فيه دناءة وغش وخداع وانتهازية ودموع!

وهيفضل فيه ألم.

لكن الشطارة إنك تاطلع بالحسنة الوحيدة في القصة دي، وهي زيادة رصيدنا التراكمي من التجارب والخبرات، واللي المفروض ينعكس على جودة اختياراتنا بعد كده ولو جزئيا، وعشان ده يتحقق لازم نبقى واعيين لنفسنا وللي حوالينا كويس قوي، ومتيقنين إننا نستاهل أفضل من اللي إحنا فيه ، ومهما كان البهرج والمظهر خداع نقدر ننفذ من

خلالـه ونبـص عـلى الـروح، ونقـرر إذا كنـا هنتعـارف فنأتلـف ولا هنتناكـر فنختلـف.

سـاعات بتبقـى عايـز حاجـة معينـة مـن الـلي قدّامـك، وبالتـالي أي شيء هيقدمهولـك، أيـا كانـت قيمتـه عنـده مـش هيُشـبعك!

بالظبـط زي مـا تكـون جعـان جـدا، وقتهـا مـش هتقـدر تركـز في جـمال الطبيعـة الفتّـان أو تصغـي لصـوت العصافـير عـلى الشـجر، رغـم إن دي حاجـات جميلـة طبعـا في ذاتهـا، وفي أوقـات تانيـة بترضيـك وتخليـك طايـر، بـس إنـت -ببسـاطة- دلوقتـي عايـز تـاكل الأول، وتُـرضي حاجتـك، وبعديـن تبـص حواليـك بقـى وتتلفـت وتسـتمتع.

عشـان كـده، فيـه تضحيـات كبـيرة بتتبـذل مـا بنحسّـش بيهـا، مـش لأنها قليلـة، أو عديمـة النفـع، لكـن لأننـا مـش محتاجينهـا في الوقـت الحـالي، يعنـي أنـا هيهمّنـي بإيـه إنـك تتـبرع لي بكِليتـك وأنـا معنديـش مشـاكل في الكليـة وكل الـلي عايـزه أعمـل نضـارة؟ في الوقـت ده النضـارة أم 200 جنيـه، أهـم عنـدي وأكـثر قيمـة مـن كليتـك الـلي مـا تتاقلـش بالمـال!

للسـبب نفسـه، قبـل مـا تكبّـل حـد بمعروفـك، وجمايلـك، وتضحياتـك، شـوف احتياجاتـه الأول، عشـان مـا تتصدمـش في رد فعلـه مـن ناحيـة، واللي عملتـه يـروح هـدر، ومـن ناحيـة تانيـة: يمكـن الـلي هـو محتاجـة منـك دلوقتـي، وهيمثـل علامـة فارقـة في علاقتكـم، يكـون أبسـط وأهـون بكتـير مـن الـلي إنـت عـمال تفّكـر فيـه وتعـدّ لـه وتحسـب لـه وشـايل همـه.

بعـد مـا نكتشـف خيانـة حبايبنـا وندالتهـم، بتيجـي علينـا لحظـات نبقـى عايزيـن نـروح لهـم -رغـم انتهـاء كل مـا بينـا- ونـصرّخ في وشـهم إننـا كشـفناهم ومـا كنّـاش مغفلـين، لكـن دي حيلـة مـن العقـل الباطـن، ظاهرهـا إننـا عايزيـن نعرّفهـم قـد إيـه كنـا واعيـين قـوي ومـا بيتضحكـش علينـا بسـهولة وفقسـناهم، فيـما الحقيقـة إننـا بنكـون بنتلـكك ونتعلّـق بخيـط واهـي إنهـم لمـا يلاقونـا كشـفناهم.. يحسّـوا عـلى دمهـم، ويبـدأوا مـن جديـد معانـا عـلى نضافـة، ويعتـذروا عـن الـلي فـات، ويحاولـوا بعوّضونـا ومـا يخونونـاش تـاني!

لكـن التجربـة بتقـول إن العلاقـة الفاسـدة لمـا تنتهـي، لازم تنتهـي، لا عتـاب بقـى ولا نـدم ولا ترتيـب أوراق ولا هـات جوابـاتي وخـد صـورك وتبريـر مواقـف وهـم مـا يتلـم.

الـلي أعرفـه: ضربـة نافـذة بسـكين حاميـة في القلـب تمامًـا، وليحـلّ الظـلام عـلى الجميـع. ومـا عـدا ذلـك: نحنحـة فارغـة ودلـع ومرقعـة ومياصـة ومراهقـة لا تليـق بالحـب وأهلـه ولا باحترامنـا لنفسـنا واللـه!

مشـكلتنا إننـا بنحـاول نستنسـخ التجـارب الـلي فاتـت في كل علاقـة جديـدة، عشـان نعيـش نفـس الأحاسـيس، ونمـر بنفـس الخـبرات، ورافضـين نقتنـع إن مفيـش حـد شـبه حـد ولا علاقـة زي علاقـة!

مـع إن كل مرحلـة وليهـا رونقهـا، وفيـه تجـارب حلاوتهـا في إنهـا انتهـت في الوقـت المناسـب، وسـابت ذكـرى لطيفـة، ولـو كانـت اسـتمرت لحـد دلوقتـي، كانـت دمرتنـا.

دع مـن يمـضي يمـضي، ومـن يفـارق يفـارق، سـيب رجلـه، وفُـك إيديـك مـن حوالـين رقبتـه، وخلّيـه يمـر، الراحلـون لا يملكـون عناوينـا الجديـدة، والمـوتى لا يعـودون إلى أرض ابتلائهـم، فعـش الحيـاة -كـما يقـول صديقـي محـترف السـيارات- (نقلـة ورا نقلـة).

لو بحثنا لن نجد.
الحب كالموت يتخطفنا في موعد لا يُخلفه.

مَـنْ أحـبَّ لسـببٍ، وتعلّـق لغايـةٍ، يُوشـك حبُـه أن يـزولَ بفـوات السـببِ، وانقضـاء الغايـة، ومَـنْ أحـبَّ بـلا سـببٍ، زادتـه الأسـبابُ كَلَفَـا وتعلّقا ويقينا.

سـلامًا لمـن طَـرَقَ البـابَ، فوجـدَه مغلقًـا، فعـذرَ وأمهـلَ وصـبرَ ورابَـطَ وأبَى الانـصرافَ، ومكـثَ غـيرَ بعيـدٍ،

يتحـيّن فرصـة، ويترصّـد ثغـرة، حتّـى رأى نصـفَ انفراجـةٍ، فانتهزهـا، وجـازَ وعـبرَ واخـترقَ ومـرّ إلى قلوبنـا، فأنـار ومنـح وطبطـب وأحيـا وأعـان وعوّض واحتوى.

وأن ليس لمن أضاع الطريق أن يسأل متى الوصول!

في علم التسويق يوجد مصطلح positioning ويعني وضع علامتك التجارية في التصنيف الملائم لها في السوق، لتخاطب جمهورك الذي تبحث عنه ويبحث عنك، فلا يصح أن تكون سلعتك كتبا مثلا، وتقدم نفسك على أنك صانع حُلي ثم تشكو أن أحدا لا يُعيرك انتباهاً!

والأمر نفسه في العلاقات عموما، لا بد أن تضع ما بينك وبين الطرف الآخر في مكانه الصحيح، وتختار له التوصيف الملائم والواقعي، وتضع إطارا زمنيا للانتقال بين أطوار العلاقة مع ترك هامش للإخفاقات والمرونة في تغيير الوسائل والطرق للوصول للهدف النهائي، كي لا يفاجئك ما يحدث -أو ما لا يحدث- لكن مصيبتنا الكبرى وحماقتنا الأفدح أن الـ positioning بيبقى ضاربه السلك ومنيل بنيلة من الأول أساسًا!

البُعد ما يعنيش إننا ما بقيناش مهتمين ببعض، ولا محتاجين نتطمن على بعض.

البُعد استجابة للقدر، للظروف، للغباء، لكنه ما بينزعش الإنسانية من القلب، ولا بيموّت الذكريات الحلوة حتى لو عليها رُكام القسوة والتفاصيل، ولا بينسينا قد إيه كنَّا بني أدمين وحقيقيين فعلا وإحنا مع بعض. ويمكن بالعكس: القُرب كان عامينا عن أحلى ما فينا، ولما بعدنا شُفناه، وحسينا باحتياجنا ليه، حتى لو ما عادش ينفع نبقى مع بعض تاني!

بعد قليلٍ، نبدأ في الاقتناع، أن الحبّ لم يكن -فقط- مسكة اليد في حضور قمرٍ عفيّ على الكورنيش، ولا القُبْلَة المختَلسة في ظلام السينما، ولا الحضن العاصر النازف حنينًا بين سراديب "بيت الست وسيلة" في الحسين، ولا المكالمات الليلية الهائمة حتى الفجر على خلفية من شدو أم كلثوم "هل رأى الحب سُكارى مثلنا"، وإنما كذلك: القدرة على معرفة اللحظة المناسبة للصمت.. للكفِّ عن كلّ شيء.. لجرجرة الأحلام والانسحاب بهدوء.. دون خسائر فادحة!

سلامًا للذين إذا مرّوا على القلب، طبّبوا جروحه، وأناروا مصابيحه، وأحيوا شوارعه وطرقاته، وطردوا أشباح الراحلين والغادرين والخائفين والمرتعشين، وحوّلوا الخسارات مساحاتٍ لانتظار الفرص، والهزائم أقمارًا في ليل الشجن الطويل.

إنما المحبّون مَن إذا مدّوا أيديهم إلى نار الله الموقدة واحترقوا، لم يلوموا اللهب ولا الحرارة ولا مشعلها، لكن أنفسهم!

سلامًا للأشياء التي تنتهي حين تنتهي، العابرين دون صخب ولا بصمات أصابع على القلب، التاركين مساحاتٍ لالتقاط الأنفاس، المتحققين بالغياب، الواصلين بالانقطاع، الباقين هناك، في مكان نجهله ويجهلونه، وقد لا يمكننا الوصول إليه أبدًا.. لكنه يبقى.. ويبقون.. رهن إيماءة.

يمكن مش مكتوب لنا نلعب أدوار البطولة في حياة بعض، ونفضل في الضل، لكن ساعات الضل بيكون أصدق وأكثر قدرة على التأثير.

وَجُلّ ما تمنيتُ.. أن تكوني لي حالًا لا حالة.

كانت أمّي تقول لي بابتسامة حانية (ربنا يستر قلبك).

فأُقبِّلُ يدَها ورأسَها وأمضي، دون أن أفهم يقينًا ما تقصده، حتى جَرَتْ عليَّ أحوال الدنيا، وفهمتُ أنها أعظم دعوة في الوجود!

فستر القلب أن يفتحَ اللهُ لكَ براحًا في كونه، فيرزُقك محبوبًا يبادِلك المشاعرَ نفسَها، دون مَنٍّ ولا إحسانٍ ولا مباهاةٍ ولا طمعٍ في قضاء حاجة ولا انتظارِ مقابلٍ، يُعشِّقُ روحَك في روحِه، ويُكنُّ قلبَك في قلبِه، فيكون على ضعفه أمينًا، ولسرِّه حفيظًا، ولكسرِه جابرًا، ولتقصيرِه مُعينًا، ولهلعِه مسكنًا، ولنزواته ناصحًا، ولجنونه ساترًا، ولزلّاته آويًا، ولفتوره طبيبًا، فإذا كلاكما مُكتملٌ بصاحبه، مُستغنٍ عمَّن سواه، مُؤتنسٌ بحضوره، مُكتفٍ بتجلِّيه، فلا تقتحمكما عينٌ، ولا يذكركما لسانٌ، ولا تجري لكما سيرةٌ، ولا تنالكما مُخيَّلة، ولا يرقى إليكما ظَنٌّ، وذلك عينُ الستر والتخفِّي!

فلله دَرُّك يا أمي!